صور الآخر: (العدوّ)
في شعر الفرسان في العصر الجاهلي

الباحث/أحمد عبيد عبد الله
قسم الأدب والبلاغة والنقد – كلية اللغة العربية

مدخل:

يخوض الشاعر مع عدوه منافسة شديدة متباينة الفصول على كافة الأصعدة فمرة يقارعه بالسنان ومرة يفحمه بالبيان، ولا يزال يصول وإياه ويجول فى معارك من هذين القبيلين، شأن تلك الحياة التى كانت سائدة فى المجتمع الجاهلى، فللشعر معتركه الذى لا تقلّ المقارعة فيه وخوض غماره عن ميدان الحرب، بل هو نوع آخر من الحرب، على الشاعر الفارس خوضها هجوماً علِى العدوّ ولذعه بسياط الهجاء وسليط اللسان تارة، ودرعا منيعاً دفاعاً عن نفسه أو عن قبيلته وقومه تارة أخرى، **يقول عنترة**[١]:

وأطعن فى الهيجا إذا الخيل صدها غداة الصباح السمهري المقصد
سيأتيكم عني وإن كنت نائياً دخان العلندي دون بيتي مذود(٢)
قصائد من قيل امريء يحتديكم بني العشراءِ فارتدوا وتقلدوا

ويقول فى موضع آخر[٣]:

وَأحمِي حِمَى قَومِى عَلَى طُولِ مُدتِي إِلىَ أَن يروني فى اللفائف أدرج
فدونكم يا آل عبس قصيدة يلوح لها ضوء من الصبح أبلج

وكما أن دفاع الفارس للعدو قد يكون عن نفسه أو فرداً من قبيلته أو القبيلة كلها، كذلك قد تكون العداوة من فرد أو أفراد، أو حتى قبيلة، بَعُدَ النسب في كل أولئك أو قُرب؟؟!

فهكذا هى وظيفة الشاعر الفارس، أن يقف أحياناً مدافعاً عن نفسه أو عن حبيبته مناضلاً عنها، وحيناً عن قبيلته وقومه، ومرة أخرى مع عنترة وهو يدافع عن نفسه فيمن يعيّره بالسواد[٤]:

---

[١] شرح ديوان عنترة بن شداد، الخطيب التبريزى، (ص٥٣)
[٢] العلندى: شجر من العضاة ولا شوك له، واحده علنداة. أى منابت العلندى بينى وبينكم. أى سيأتيكم مذود يذودكم، يعنى الهجاء. المحكم والمحيط الأعظم (٢/ ١٧).
[٣] شرح ديوان عنترة بن شداد، الخطيب التبريزى، (ص٤٢)
[٤] المصدر السابق (ص٧٩)

سوادى بياض حين تبدوا شمائلي وفعلى على الأنساب يزهو ويفخر

وقال فى موضع آخر[٥]:

وما عاب الزمان على لونى ولا حط السواد رفيع قدرى

ويقول فى آخر[٦].

وإن يعيبوا سواداً قد كسيت به فالدر يستره ثوب من الصدف

إنها محاججة للدفاع عن النفس، لهجمات العدوّ الذى لا يزال يتربّص ويبحث عن أي مثلبة أو عيب، ولا يبالى نقطة ضعف أو نقص ظفر، فهدفه التقليل من شأن الآخر، وإذلاله وهزّ شموخه، وسلبه كلّ فضيلة، وإلباسه كل رذيلة، وهو هنا لم يجد ما يعيب به الفارس الشاعر الشجاع إلا سواد لونه، تلك الصفة التى لا تقدح بالشاعر الفارس، ولا قبل له بدفعها أو تغييرها، فيدافع عن نفسه بأنّ السواد لا يضاد المكارم، ولا ينافى الجمال، فكم من درّة السواد وتترعرع فى كنفه، ثم لا يسلبها ذلك رونقها ولا يذهب بريقها ولا يحطّ من جمالها وسحرها.

وبما أن العنف طابع على ردود الفعال للعداء الجاهلى، فقد كان خوض الحروب والحديث عن ميادينها هو المظهر الأبرز تناولاً وتداولاً فى شعر الفرسان، أكثر من غيره من حلقات العداوة وتدرجاتها، ولذا غلب الطابع على الأمثلة التالية، وجاء الحظ الأوفر مناه من نصيب الفارس الأبرز فى هذا المجال، عنترة بن شداد. والذى تجاوز تطلّعه لخوض غمار الحروب ومقارعة الأبطال، وإدراك ثأره من أعدائه، أن بلغ به الأمر إلى جعل ذلك أحد الأهداف التى يرتجى المزيد من الإمهال لتحقيقها، ويحمل الهم الأكبر خشية من تخرم المنيّة له دونها، إذ يقول[٧]:

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر للحرب دائرة على ابنى ضمضم

الشاتمي عرضى ولم أشتمهما والناذرين إذا لم ألقهما دمي

وفى أبيات مماثلة يوصي بملاحقة عدوّه الذى تمنّع منه واحتمى بالمرتفعات والشعاب مستبعداً إدراك ثأره، رغم تحميله دمه والوصية بإدراك الثأر منه، فيقول[٨]:

---

[٥] المصدر السابق (ص٨٣).
[٦] المصدر السابق (ص١٠٣).
[٧] شرح ديوان عنترة بن شداد، الخطيب التبريزى، (ص١٨٦).
[٨] نفس المصدر (ص١٤٢).

وإن ابن سلمى فاعلموا عنده دمى وهيهات لا يرجى ابن سلمى ولا دمى
يحل بأكناف الشعاب وينتمى مكان الثريا ليس بالمتهضم
رمانى ولم يدهش بأزرق لهذم عشية حلوا نعف ومخرم

ويأتى بإزاء الحرب بالسيف ضمن ردود أفعال العداء حرب على صعيد آخر تتمثل فى هجاء الخصوم بذكر مساوئهم وتعداد قبيح صفاتهم، مع مبالغة وتقزيم موغل قصده الحط من قدر العدوّ بأكبر قدر ممكن، وتشويه صورته بما لا ذمّ فوقه، إمعاناً فى إذلاله وإهانته، بوصمه الصفات الأكثر قبحاً فى المجتمع الجاهلى: كالجبن، والغدر، والكذب، وتعريته من الصفات الممدوحة، كالكرم والوفاء... الخ.

وتكمن خطورة هذه الحرب الإعلامية ونكايتها وأهميتها فى الوقت ذاته، فى كون تلك الصفات التى يوصم بها المهجوّ ستداولها الألسن، على نطاق القبائل وتنتشر على ألسنة الأفراد، وتنشد فى المجامع والأندية، فتعيّر بها تلك القبيلة، أو فرد من أفرادها، مما يخرم مكانتهم، ويهزّ كيان مجدهم، ويشوّه صورتهم الاجتماعية ويخرم مرؤتهم فى الأذهان على نطاق واسع، لا رتق له، فيا لها من نكاية فى العدوّ أى نكاية..

صور العدوّ الهيّاب الجبان وردود أفعاله:

نستهلّ هذه الصور بصورة رسمها لنا الشاعر مهلهل بن ربيعة يتباهى فيها بعدم خشيته للنزال والمبارزة فى حين يهاب عدّوه ذلك، فيقول مفاخرة لعدوّه متحدياً له، وكأنه يتبختر فى ساحة المعركة وحيداً ينادى من يبارز، وأعداؤه واجمون وجلون خائفون، لا يتجرأ منهم أحد لنزاله، يقول[٩]:

لم يطيقوا أن ينزلوا ونزلنا وأخو الحرب من يطيق النزولا

ويهجو قيس بن الخطيم أعداءه، ويصفهم بالفرار أمام قومه، ويتوعدهم بالملاحقة، وعدم سلامتهم حتى بالفرار، فيقول[١٠]:

ويأبى جمعكم إلا فرارا ويأبى جمعنا إلا ورودا

إلى أن قال:

فما أبقت سيوف الأوس منكم وحد ظباتها إلا شريدا

---

[٩] ديوان مهلهل بن ربيعة، شرح: طلال حرب، (ص٦٣).
[١٠] ديوان قيس بن الخطيم، ت: ناصر الدين الأسد، (ص١٤٩).

فلن ننفك نقتل ما حيينا رجالكم ونجعلكم عبيدا

ويصور لنا عنترة صورة عدّوه فاراً هارباً حينا يضطره اشتداد القتال أو مقدماته إلى النزول عن فرسه، فيقول[١١]:

إن يلحقوا أكرر وإن يستلحموا أشدد، وإن يلفوا بضنك أنزل

حين النزول يكون غاية مثلنا ويفر كل مضلل مستوهل[١٢]

فالعدو الخائف الوجل لا تحمله أرجله على الثبات على أرض الوغى، بينما تطير به هرباً!!

وفى لغة متعالية متباهية يخاطب عدّوه الجبان، بأننى ألقى كتيبة كاملة بمفردى، فأبادلها الطعان، حتى أتغلّب عليها، فدعنى وهذا الشأن فأنا وأمثالى من الرجال أهله، لا أمثالك من المذعورين، الوجلين الخائفين، يقول[١٣]:

وإذا لقيت كتيبة طاعنتها وسلبتها يوم اللقاء عقابها

فاذهب فأنت نعامة مذعورة ودع الرجال قتالها وسبابها

وبأوصاف مهينة غاية فى الهجاء والاستخفاف والهزء بعدوّه، حين سمع بتوعّده له، وبسخرية يطلب منه أن يقابله منفرداً ليدلل على صدق شجاعته، ثم يتهكم بوصفه بصفات الجبن ويذكره بما عهده عليه أو يتوقعه منه، من ظهور علامات الخوف كرجفان الإليتين واضطراب أطرافها، وما يصاحب ذلك من هلع وجزع يكاد يُطيره هرباً، فيقول[١٤]:

أحولى تنفض استك مذرويها[١٥] لتقتلنى فها أنذا عمارا

متى ما نلتقى فردين ترجف روانف[١٦] إليتيك وتستطارا

ثم ها هو يصوّر لنا مطاردة عدوّه الجبان بعد أن جرحه ذلك العدو فى وجهه، وهو يقول له اصبر لا تفرّ، بعد أن تركت أثراً فى وجهى، أغرّك أن جرحتنى، فهكذا يجرح الكرام

---

[١١] شرح ديوان عنترة بن شداد، الخطيب التبريزى، (ص١٢٦).
[١٢] مستوهل: فزع. أساس البلاغة (٢/ ٣٥٨).
[١٣] شرح ديوان عنترة بن شداد، الخطيب التبريزى، (ص٢٤).
[١٤] المصدر السابق (ص٦٩).
[١٥] مذرويها: جانبيها.
[١٦] روانف: أطراف.

الشجعان في وجوههم مقبلين، لا كالجبناء الذين لا يصابون إلا في ظهورهم مدبرين، فيقول[١٧]:

اصبر حصين لمن تركت بوجهه أثراً فإنى لا أخالك تصبر
ما سرنى أن القناة تحرفت عما أصابت من حجاج المحجر
إن الكريم ندوبه فى وجهه وندوب مرة لا ترى فى المنحر
لكن فى أكتافهم ونحورهم فبذاك فافخر بئس ذاك المفخر

العدو الشجاع وذو المكانة:

من شأن الأبطال الشعراء أن يصفوا أعداءهم بالشجاعة، وليس ذلك لتحرى الصدق والإنصاف بقدر ما هو تنويه بشجاعة أنفسهم؛ إذ لا يغلب الشجاع إلا الأشجع منه، ولا يكر عليه ويهاجمه إلا بطل مغوار لا يبالى فى إقدامه أى الخطوب اقتحم.

يقول الشنفرى، وهو يصف معركة خاطفة شنها بمن معه من فرسان الصعاليك على أعدائهم الذين ثاروا عليهم فى هجوم حام، فيقول[١٨]:

فثاروا إلينا فى السواد فهجهجوا وصوت فينا بالصباح المثوب[١٩]
فشن عليهم هزة السيف ثابت وصمم فيهم بالحسام المسيب[٢٠]
وظلت بفتيان معى أتقيهم بهن قليلاً ساعة ثم خيبوا
وقد خر منهم راجلان وفارس كمي صرعناه وخوم مسلب[٢١]

ويصور فى موضع آخر مصرع عدوه على يديه، ويصفه بالفارس المستبسل، فيقول[٢٢]:

ومستبسل ضافى القميص ضممته بأزرق لا نكس ولا متعوج

وينقل لنا صورة ثأرهم وانتقامهم من عدوهم بقتل خير فرسانهم، فيقول[٢٣]:

قتلنا بعمر ومنهم خير فارس يزيد وسعداً وابن عوف بمالك

---

[١٧] شرح ديوان عنترة بن شداد، الخطيب التبريزى، (ص٧٤).
[١٨] ديوان الشنفرى، ويليه ديوان السليك، طلال حرب، (ص٣٤).
[١٩] السواد: الليل، هجهجوا: صاحوا، المثوب: الداعى المكرر للنداء.
[٢٠] ثابت: يقصد تأبط شراً.
[٢١] الكمي: البطل الشجاع، الوخوم: الرجل الثقيل.
[٢٢] ديوان الشنفرى، ويليه ديوان السليك، طلال حرب، (ص٤٢).
[٢٣] ديوان الشنفرى، ويليه ديوان السليك، طلال حرب، (ص٥٤)

ظللنا نفري بالسيوف رؤوسهم ونرشقهم بالنبل بين الدكادك

وها هو تأبط شراً يصور مصرع أحد أعدائه الفرسان ونوح النساء عليه وهو يلفظ أنفاسه، وهن يذكرنه ما كان عليه من الإباء والشجاعة، فيقول[٢٤]:

ويوم أهز السيف فى جيد أغيد له نسوة لم تلق مثلى أنكرا

ينحن عليه وهو ينزع نفسه لقد كنت أباء الظلامة قسورا

ونجد عنترة بن شداد يسجل لنا وصف عدوه بالشجاعة فى قوله[٢٥]:

سأحمل بالأسود على أسود وأخضب ساعدى بدم الأسود

فهو هنا يصور عدوه كالأسد، ولم يمنعه ذلك من الحمل عليه والهجوم بمن معه من قومه واصفاً إياهم بالأسود، وهو فى مقدمتهم، يضرب فى العدو طولاً وعرضاً حتى يتخضب ساعده بدماء أولئك الأعداء، فلم ينجهم كونهم أسوداً من بطشه واستئساده.

ويصور لنا عدواً آخر مدجج بالسلاح ينازله وهو ثابت الجنان، أبى لا مطمع فى استسلامه، فأحرى بهر به، مما جعل الفرسان تهابه، وتتجنب نزاله، يقول[٢٦]:

ومدجج كره الكماة نزاله لا ممعن هرباً ولا مستسلم

جادت يداي له بعاجل طعنة بمثقف صدق القناة مقوم

وفى صورة أخرى لمواجهة حامية مع عدو شجاع وبطل مقدام، نال وسام الفروسية (حامى الحقيقة) لا ترهبه المواجهة بل يكشر لها عن أنيابه فى صورة تغري خصمه بأنها كالتبسم استدراجاً له إلى حتفه، إلا أن كل تلك الصفات لم تصمد أمام فارسنا ورمحه المعزز بسيفه المهند، يقول[٢٧]:

ومشك سابغة هتكت فروجها عن حامى الحقيقة معلم[٢٨]

ربذ يداه بالقداح إذا شتا هتاك غايات التجار ملوم[٢٩]

لما رآني قد نزلت أريده أبدى نواجذه لغير تبسم

---

[٢٤] ديوان تأبط شراً وأخباره، ت: على ذو الفقار، (ص١٠٠).
[٢٥] شرح ديوان عنترة بن شداد، الخطيب التبريزى، (ص٦٥).
[٢٦] شرح ديوان عنترة بن شداد، الخطيب التبريزى، (ص١٧٣).
[٢٧] المصدر السابق، (ص١٧٥).
[٢٨] المشك: الدرع، وقيل: المسامير فى حلق الدرع.
[٢٩] ربد: السريع، القداح: السهام، التجار: الخمارون.

فطعنته بالرمح ثم علوته بمهند صافى الحديدة مخذم[٣٠]

عهدي به شد النهار كأنما خضب اللبان ورأسه بالعظلم[٣١]

بطل كأن ثيابه فى سرحة يحذى نعال السبت ليس بتوأم[٣٢]

ويصور لنا نهاية معركته وتغلبه على أحد الأقران الأبطال، فيقول[٣٣]:

ولرب قرن قد تركت مجدلاً ولبانه كنواضح الجريال

تنتابه طلس السباع مغادراً فى قفرة متمزق الأوصال

وكما أسلفنا فوصف العدو بالبطل، وغيره من أوصاف الشجاعة ليس إلا إشارة عكسية تصب فى إضفاء الشاعر الفارس على نفسه الوصف نفسه بحجم أكبر بحكم التغلب والنصر لا من باب الإنصاف أو الاعتراف بالفضل للآخر العدو.

وينقل لنا عمرو بن كلثوم، صورة لعدو كان قومه قد توجوه ملكاً عليهم ليحميهم، حتى أغار عليه هو وقومه، فهزموه، وتركوا الخيل عاكفة على جثمانه فى أرض المعركة، فيقول[٣٤]:

وسيد معشر قد توجوه بتاج الملك يحمي المحجرينا

تركنا الخيل عاكفة عليه مقلدة أعنتها صفونا

ويصور عنترة بن شداد، كيف غادر فارساً مغواراً وهو مجدل متعفر الأوصال بالتراب ولم تنفعه ثقته وغروره بنفسه، ولا مهارته فى استخدام السيف، فيقول[٣٥]:

غادرته متعفراً أوصاله والقوم بين مجرح ومجدل

فيهم أخو ثقة يضارب نازلاً بالمشرفي وفارس لم ينزل

وينقل لنا فى أبيات أخرى مدى نكايته فى عدوه وخسارتهم بسبب قتله لفارسهم مع آخرين من أعيانهم، فقال مفتخراً [٣٦]:

ولقد نكبت بنى حريقة نكبة لما طعنت صميم قلب الأخيل[٣٧]

---

[٣٠] مخذم: قاطع.
[٣١] العظلم: صبغ أحمر.
[٣٢] سرحة: الشجرة، تحذى: تلبس، نعال السبت: النعال المدبوغة.
[٣٣] شرح ديوان عنترة بن شداد، الخطيب التبريزى، (ص١٣٢).
[٣٤] ديوان عمرو بن كلثوم، ت: د. إميل بديع يعقوب، (ص٧١).
[٣٥] شرح ديوان عنترة بن شداد، الخطيب التبريزى، (ص١٢٢)
[٣٦] المصدر السابق، (ص١٣٤).
[٣٧] النكبة: المصيبة، الأخيل: المتكبر.

وقتلت فارسهم ربيعة عنوة والهيذبان وجابر بن مهلهل

وابنى ربيعة والحريش ومالكاً والزبر قان غدا طريح الجندل

وبتعبير ساخر يصور لنا كيف ينتهك رمحه الطويل حرمة الكريم من أعدائه بلا تورع ولا مبالات بمنزلته[٣٨]:

فشككت بالرمح الطويل ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم[٣٩]

ويقول فى موضع آخر أن من عادته أن يجعل من بطون الأبطال كنانة لنبله، تهويلاً وتباهياً وترهيباً لعدوه، أن لا رادع له من بطل ولا فارس، فأحرى من دونهم .. يقول[٤٠]:

وهل يدرى جرية[٤١] أن نبلى يكون جفيرها[٤٢] البطل النجيد[٤٣]

وها هو أيضاً يصف تركه لزوج غانية صريعاً على أرض المعركة، فيقول[٤٤]:

وحليل غانية تركت مجدلا تمكو فريصته كشدق الأعلم

سبقت يداي له بعاجل طعنة ورشاش نافذة كلون العندم

ويكمن الفخر بالتغلب على من هذا وصفه (حليل غانية) ما يغلب على من هذه حاله من العزة والأنفة والتنعم... الخ.

وفى صورة أخرى يصف كيف يبيت متسلحاً برمحه، يحذر غارة للأعداء الأشداء، الذين يشبهون الغول خفة وبسالة وتسلحاً برماحهم الطويلة، ورغم ذلك فهو فى انتظارهم ليعالجهم برمحه ويرويه من دمائهم، فيقول[٤٥]:

برح بالعينين كل مغيرة أسنتها من قاني الدم تردم

أمارس فيها ابنى قشير كليهما برمحي حتى بل عامله الدم

أمارس خيلاً للهجيم كأنها سعالى بأيديها الوشيج المقوم

---

[٣٨] شرح ديوان عنترة بن شداد، الخطيب التبريزى، (ص١٧٤).
[٣٩] شككت: (ويروى: كمشت) أي شققت، أو رفعت ثيابه لما طعنته.
[٤٠] شرح ديوان عنترة بن شداد، الخطيب التبريزى، (ص٥٢).
[٤١] جرية: اسم رجل.
[٤٢] الجفير: الكنانة.
[٤٣] الشجاع ذو النجدة.
[٤٤] شرح ديوان عنترة بن شداد، الخطيب التبريزى، (ص١٧٠)
[٤٥] نفس المصدر، (ص١٣٩).

صور العدو المنهزم:

يصف عمرو بن كلثوم، ما آلت إليه جماجم أعدائه، ويشبهها بأحمال الجمال، الملقاة فى فلاة كثيرة الحجارة، ويصور مدى حيرة العدو فيم يحذر، وأى شيء يتقى، فهو مهدد بالسيوف والرماح من كل جانب، يقول[٤٦]:

بسمر من قنا الخطي لدن ذوابل أو ببيض يعتلينا[٤٧]
نشق بها رؤوس القوم شقاً ونخليها الرقاب فتختلينا
كان جماجم الأبطال فيها وسوق بالأماعز يرتمينا(٤٨)
ورثنا المجد قد علمت معد نطاعن دونه حتى يبينا(٤٩)
ونحن إذا عماد الحي خرت عن الأحفاض نمنع من يلينا(٥٠)
نجد رؤوسهم فى غير بر فما يدرون ماذا يتقونا(٥١)

ويرسم عنترة صورة مرعبة لأعدائه المغرورين، وهم يقعون فريسة سهلة للنهب والسلب، إنه يتركهم جثثاً هامدة للكواسر والوحوش، ويغادرهم وأموالهم منهوبة ومقسمة بين الناس، فيقول[٥٢]:

إذا التقيت الأعادي يوم معركة تركت جمعهم المغرور ينتهب
لي النفوس وللطير اللحوم ولل وحش العظام وللخيالة السلب

وفى موضع أخر يصور ديارهم بأن لا أنيس فيها، فهى خالية يخيم عليها الهدوء، من كل مظاهر الحياة الإنسانية؛ ولم تعد آهلة بالناس، فأصبح أهلها الغربان والذئاب والنمور، ويفتخر بأنه سبب كل ذلك الدمار، فيقول[٥٣]:

ما خالد بعدما قد سرت طالبه بخالد لا ولا الجيداء تفتخر
ولا ديارهم بالأهل آنسة يأوي الغراب بها والذئب والنمر

---

[٤٦] ديوان عمرو بن كلثوم، ت: د. إميل بديع يعقوب، (ص٧٤) وانظر الرؤية للذات والآخر فى معلقة عمرو بن كلثوم، أ.د مؤيد محمد صالح اليوزبكي، آداب الرافدين، العدد (٥٦) ١٤٣١/ ٢٠١٠م (ص١٧)

[٤٧] توصف الرماح بالسمرة لذبولها، وقنا الخطى: نسبة إلى الخط وهى بلدة كانت على ساحل البحرين تشتهر بصناعة القنا ، اللدن: المرنة. البيض: السيوف.

[٤٨] الأماعز: الأراضى الصلبة، الوسوق: جمع وسق وهو الحمل.

[٤٩] يبين: يتضح.

[٥٠] العماد: جمع عمود، خرت: سقطت، الأحفاض: متاع البيت، يقصد بذلك رحلة الحي للحرب.

[٥١] الوتر: الثأر، ونجذ: نقطع.

[٥٢] شرح ديوان عنترة بن شداد، الخطيب التبريزي، ص(٢٥).

[٥٣] نفس المصدر، ص(٨٠)

ويصف تأبط شراً مصرع عدوه على يديه، وكيف غدا ثوبه متشربا من دمه ومصبوغاً به بالكامل؛ من جراء غزارة نضح عروق عنقه بالدماء، فيقول[٥٤]:

دنوت له حتى كان قميصه تشرب من نضح الأخادع عصفراً[٥٥]

ويصور لنا عنترة بن شداد، ما خلفوه على أرض المعركة من حطام وما عملوه فى العدو من عمل حين أدبر مولياً ظهره، فتركوا الطير عاكفة على دمائهم، والأجسام لا رمق بها ولا حياة، فيقول[٥٦]:

لقد وجدنا زبيداً غير صابرة يوم التقينا وخيل الموت تستبق
إذ أدبروا فعملنا فى ظهورهم ما تعمل النار فى الحلفى فتحترق
وخالد قد تركت الطير عاكفة على دماه وما فى جسمه رمق

وفى مشهد آخر ينقل لنا صوراً لنهاية العدو بعد أن باغتهم فارسنا الشاعر فى جمع حافل انحدر عليهم كالمطر المنهمر، فما دهاهم إلا لهيب سيفه الساطع المشتعل، وكيف فر فرسانهم خوفاً منه وفرقاً، وهو يلاحقهم بالطعان كالموت الذى لا مفر لهم منه، حتى أتى على آخرهم، وقفل راجعاً وجماجمهم المتناثرة تتعثر بها فرسه، وقد غدى من فرحه ونشوته بالنصر كما ينتشى الثمل من الشراب، فيقول[٥٧]:

سلى فزارة عن فعلي وقد نفرت فى جحفل حافل كالعارض الهطل
تهز سمر القنا حقداً علي وقد رأت لهيب حسامى ساطع الشعل
يخبرك بدر بن عمرو أننى بطل ألقى الجيوش بقلب قُد من جبل
قاتلت فرسانهم حتى مضوا فرقاً والطعن فى إثرهم أمضى من الأجل
وعاد بى فرسى يمشى فتعثره جماجم نثرت بالبيض والأسل
وقد أسرت سراة القوم مقتدراً وعدت من فرحى كالشارب الثمل

وفى صورة أخرى، ينقل فيها فعاله بالعدو وكأنها مأدبة يدعو إليها السباع، ويقول لها اتبعيني لرؤية الدماء السائلة بين الربى والرمال، وخذى قوتاً لبنيك من جماجم القوم

---

[٥٤] ديوان تأبط شراً وأخباره، ت: على ذو الفقار، (ص١٠٢)
[٥٥] الأخادع: عرقان فى جانبي العنق. العصفر: نبات صبغي أحمر لونه شبيه بالدم.
[٥٦] شرح ديوان عنترة بن شداد، الخطيب التبريزي، ص(١٠٥).
[٥٧] نفس المصدر، (ص١٣٦).

وسأستحق منك بذلك الشكر، وستشهدين بما أنا عليه من الشجاعة، إنها صورة مع بشاعتها إلا أنها عند الأبطال فى ذلك المجتمع غاية فى الفخر!! يقول فارسنا[٥٨]:

يا سباع الفلا إذا اشتعل الحر ب اتبعينى من القفار الخوالي
اتبعينى ترى دماء الأعادي سائلات بين الربى والرمال
ثم عودى من بعد ذا واشكرينى واذكرى ما رأيته من فعالى
وخدى من جماجم القوم قوتاً لبنيك الصغار والأشبال

ويسجل لنا الشاعر قيس بن الخطيم صوراً للعدو المنهزم وهم لا يلوون على شيء، ويهربون فى كل اتجاه، تاركين صغار الأولاد، ونساؤهم تولول ويتمنين أن لم تحصل هذه الحرب، ويهربن من الهول وقد بدت خلاخلهن حين تطاير عنهن اللباس من جراء الهرب... الخ فيقول[٥٩]:

أطاعت بنو عوف أميراً نهاهم عن السلم حتى كان أول واجب
أويت لعوف إذ تقول نساؤهم ويرمين دفعاً: ليتنا لم نحارب
صبحناهم شهباء يبرق بيضها تبين خلاخيل النساء الهوارب

ويعبر فى موضع آخر، عن تسلط قومه على عدوهم وتكرار غارتهم عليهم، وتسليط السيف عليهم، مما أورثهم ذلاً وصغاراً، وصل بهم إلى الاختفاء بين من حولهم، اختفاءً لا يلحظون معه لقلة شأنهم، وشدة ذلهم، وكأنهم صغار الإبل فى الاختباء بين أمهاتها، لما اعتادوه من التذليل؛ بما ينالهم من القمع والحبس والرد عن أمهاتهم حين الحلب وغيره، فيقول[٦٠]:

ظأرناكم بالبيض حتى لأنتم أذل من السقبان بين الحلائب[٦١]
رضيت لهم إذ لا يريمون قعرها إلى عازب الأموال إلا بصاحب

وقال الشنفرى، يصف عدوه باللؤم والذل، ويهزأ من تحذيرهم له[٦٢]:

تحذرنى كى أحذر العام خثعما وقد علمت أنى امرؤ غير مسلم
وما خثعم إلا لئام أذلة إلى الذل والإسحاق تنمى وتنتمى

---

[٥٨] شرح ديوان عنترة بن شداد، الخطيب التبريزي، (ص١٣١).
[٥٩] ديوان قيس بن الخطيم، ت: ناصر الدين الأسد، (ص٩٠).
[٦٠] ديوان قيس بن الخطيم، ت: ناصر الدين الأسد، (ص٩٤).
[٦١] السقبان: جمع السقب، وهو ولد البعير الذكر، ويقال للأنثى: حائل، والحلائب: جمع الحلوبة، وهى التى تحلب.
[٦٢] ديوان الشنفرى، ويليه ديوان السليك، طلال حرب، (ص١٠٤).

ويسخر قيس بن الخطيم من أعدائه من بنى النجار، ويذكرهم وطأة إغارته عليهم فى جمع من قومه الأشداء، ويستهزئ بهم معيرًا بأن قتالنا يحتاج إلى شجاعة واستعداد أكثر من أكل بسر التمر، أو التداوى بمشروب الحنظل، وفى ذلك يقول[٦٣]:

سقينا بالفضاء كؤوس حتف بنى عوف وإخوتهم تزيدا[٦٤]
لقيناهم بكل أخى حروب يقود وراءه جمعاً عتيداً[٦٥]
ومشرفة التلائل مضمرات طوى أحشاءها التعداء قودا[٦٦]
أكنتم تحسبون قتال قومى كأكلكم الفغايا والهبيدا[٦٧]

إلى أن قال:

فلن ننفك نقتل ما حيينا رجالكم ونجعلكم عبيدا

ويرد الفارس عنترة على أعدائه الضعفاء، بازدراء وسخرية بأن أسلحتكم متهالكة صدئة، فهى عبارة عن أسلحة التقطت التقاطاً وهى رديئة، لم تشتروها فضلاً عن أن تكون من سلبكم لعدوكم، فكيف تتوعدون أمثالى، فيقول[٦٨]:

قد أوعدونى بأرماح معلبة سود لقطن من الحومان أخلاق[٦٩]
لم يسلبوها ولم يعطوا بها ثمناً أيدى النعام فلا أسقاهم الساقى[٧٠]

وفى هجاء مهين لبعض أعدائه من بنى شيبان، يصفهم: ببنى اللئام المصابين بالبرص فى مؤخراتهم، ويسخر بهم استخفافاً بأن تعرضهم لقتالنا ومواجهتنا بمثابة تعجلهم الموت، ولفارق القوة بينهم، جراء ضعفهم، كانوا فى مواجهتهم يتخيرون فى من لم يفر منهم بين القتل والأسر، فيقول[٧١]:

عجلت بنو شيبان مدتهم والبقع أستاها بنو لأ
كنا إذا نفر المطى بنا وبدا لنا أحواض ذى الرضم

---

[٦٣] ديوان قيس بن الخطيم، ت: ناصر الدين الأسد، (ص١٤٧).
[٦٤] تزيداً: تزيد اسم جد بنى سلمة.
[٦٥] عتيداً: مهيأ.
[٦٦] التلائل: الأعناق. التعداء: العدو. القود: الطوال العناق.
[٦٧] الفغايا: واحدة: الفغا، وهو غلظ جلد بسر النخلة إذا ركبه الغبار. الهبيد: شراب من حب الحنظل المنقوع المطبوخ.
[٦٨] شرح ديوان عنترة بن شداد، الخطيب التبريزى، (ص١٠٧).
[٦٩] معلبة: اللعباء عصب فى العنق، أى أنها رماح شدت بعصب العلباء بعد أن تكسرت. الحومان: موضع.
[٧٠] أيدى النعام: تشبيه لهم بالنعام فى خوفها لجبنهم، أو فى التقامها لكل شيء لسرقتهم.
[٧١] شرح ديوان عنترة بن شداد، الخطيب التبريزى، (ص١٤٦).

نعدى فنطعن فى أنوفهم نختار بين القتل والغنم

العدو الواشى المزدري:

يرصد لنا عمرو بن كلثوم، عدة مظاهر للعداوة والكراهية، كالوشاية من طرف عدو وتصديق آخر له وطاعته فيما ينمى إليه عن الشاعر وقبيلته، وما ترتب على ذلك من ازدراء وعداء، فيقول[٧٢]:

بأى مشيئة عمرو بن هند نكون لقيلكم فيها قطينا[٧٣]

بأى مشيئة عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتزدرينا[٧٤]

تهددنا وأوعدنا رويدا متى كنا لأمك مقتوينا[٧٥]

ويحذر أبناء عمومته من الدخول فى صف أعدائه بالوشاية وغيرها من أصناف التأليب أو الاعتداء عليه وعلى قومه، وينصحهم بالتنحى جانباً، وعدم المنافسة، بعدما عرفوه عنهم من المنعة وشدة البأس، فيقول[٧٦]:

إليكم يا بنى بكر إليكم ألماً تعرفوا منا اليقينا

ألماً تعرفوا منا ومنكم كتائب يطعن ويرتمينا

وقال عنترة يحذر ذا القرابة من مغبة عداوته، ويذكره بشجاعته، وجلده على الاستبسال فى مطاردة عدوه والتهجم عليه، ناصحاً إياه أنه حري بك أن تغمض لك عين من محاذرتي[٧٧]:

لقد عاديت با ابن العم ليثاً شجاعاً لا يمل من الطراد

يرد جوابه قولاً وفعـــلاً ببيض الهند والسمر الصعاد[٧٨]

فكن يا عمرو منه على حذار ولا تملأ جفونك بالرقاد

صور العدوّ المطارد:

---

[٧٢] ديوان عمرو بن كلثوم، ت: د. إميل بديع يعقوب، (ص٧٨)

[٧٣] القطين: العبيد الأذلاء.

[٧٤] تزدرينا: تحتقرنا

[٧٥] مقتوينا: المقتوون: الخدم.

[٧٦] ديوان عمرو بن كلثوم، ت: د. إميل بديع يعقوب، (ص ٨٤).

[٧٧] شرح ديوان عنترة بن شداد، الخطيب التبريزي، (ص ٥٨).

[٧٨] السمر: الرماح. الصعاد: جمع صعدة، وهى القناة المستوية.

يصور لنا الشاعر الصعلوك تأبط شراً، مطاردة أعداء – من بجيلة – له، وهو ممعن في الهرب بأذل جهده، وهم يلاحقونه بأسرع فرسانهم، فيقول[٧٩]:

نجوت منها نجائي من بجيلة إذ ... ألقيت ليلة خبت الرهط أرواقى[٨٠]
لية صاحوا، وأغروا بي سراعهم ... العيكتين لدى معدى ابن راق[٨١]
كأنما حثحثوا حصاً قوادمه ... أو أم خشف بذى شث وطباق[٨٢]
لا شيء أسرع مني، ليس ذا عذر ... وذا جناح، بجنب الريد خفاق[٨٣]

الخاتمة

وهكذا نلحظ بجلاء كيف أن الآخر العدو حظي بالنصيب الأوفر من التصوير فى شعر الفرسان فى العصر الجاهلي، وهذا يتناسب تماماً مع كونهم فرساناً، فميدان الحرب الذي هو الملتقى مع العدو، هو ميدان الفرسان الأبرز، والأكثر حظوة وحضوراً فى حياته، ويأتي على رأس اهتماماتهم وأولوياتهم، خوضاً بالقول والفعل، ولذا كان وصفه وتصويره في مختلف أحواله سمة غالبة في شعر فرساننا مقارنة بغيره، وما هذه الأمثلة التي ذكرناها إلا نزولاً يسيراً فى فيض حديثهم وتصويرهم له.

[٧٩] ديوان تأبط شراً وأخباره، ت: علي ذو الفقار، (ص ١٢٩).
[٨٠] الخبت: المخفض من الأرض، وألقيت أرواقي: استفرغت جهدي.
[٨١] العيكتين: موضع فى ديار بجيلة.
[٨٢] حثحثوا: حثوا، أى جدوا. حصاً قوادمه: ظليماً قد تناثر ريشه. أم خشف: الظبية. سث وطبقا: نبتتان مما ترعاه الظباء.
[٨٣] العذر: جمع عذرة: الخصلة من الشعر يقبل على الوجه، وهي: العرف. والريد: قمة الجبل.

قائمة المراجع

١- الآخر حسب سارتر وظاهرية ميرلوبونتي: عبد الله عازرا، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد ٨٦ – ٨٧، ١٩٩١م.
٢- الآخر في القرآن، غالب حسن الشابندر، مركز دراسات فلسفة الدين، بغداد، ٢٠٠٥م.
٣- سعد سامي محمد، الأنا والآخر في المعلقات العشر، جامعة البصرة، كلية الآداب، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.
٤- فاروق أحمد اسليم، الانتماء في الشعر الجاهلي، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٨م.
٥- أحمد شوقي عبد السلام ضيف الشهير بشوقي ضيف، (المتوفى: ١٤٢٦هـ)، تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، دار المعارف، ج١، د.ت.
٦- أحمد ياسين السليمان، التجليات الفنية لعلاقة الأنا بالآخر في الشعر العربي المعاصر، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ج١، ٢٠٠٩م.
٧- فيصل شكري، تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، دار العلم للملايين، ط٤، د.ت.
٨- محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور، المتوفى سنة ٣٧٠هـ، تهذيب اللغة، المحقق، محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط١، ج٨، ٢٠٠١م.
٩- عبد الله بن محمد طاهر، ثنائية الأنا والآخر بين الصعاليك والمجتمع الجاهلي، مجلة التراث العربي، عدد ١٢٠ – ١٢١، ٢٠١١م.
١٠- على مصطفى عشا، جدل العصبية القبلية والقيم فى نماذج من الشعر الجاهلي، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، ج٣، مجلد ٨٣.
١١- محمد بيومى مهران، دراسات فى تاريخ العرب القديم، دار المعرفة الجامعية، ط٢، ج١.
١٢- ميجان بن حسين الرويلي، سعد بن عبد الرحمن البارغي، دليل الناقد الأدبي، ط١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
١٣- مؤيد محمد صالح اليوزبكى، الرؤية للذات والآخر فى معلقة عمرو بن كلثوم، آداب الرافدين، عدد ٥٦، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.
١٤- حمدي منصور، السبية فى الشعر الجاهلي، الجامعة الأردنية، كلية الآداب، قسم اللغة العربية وآدابها، مجلة جامعة النجاح للأبحاث، مجلد ٢٤، ٢٠١٠م.
١٥- محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي بالولاء، سيرة ابن إسحاق (كتاب السير والمغازي)، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط١، ج١، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
١٦- الخطيب التبريزي، شرح ديوان عنترة بن شداد، ت: مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٢م.
١٧- على الجندي، شعر الحرب فى العصر الجاهلي، دار العلوم، جامعة القاهرة، دار الفكر العربي، القاهرة.
١٨- كجكز
١٩- محمود حسن أبو ناجي، شعراء العرب الفرسان فى الجاهلية وصدور الإسلام، مؤسسة علوم القرآن، دمشق - بيروت، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
٢٠- بطرس البستاني، الشعراء الفرسان، ط٣، دار نظير عبود، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠م.
٢١- محمد الخبار، صورة الآخر فى شعر المتنبي، ج١، ١٩٩٥م.
٢٢- الفروسية لشمس الدين أبي عبد الله ابن قيم الجوزية، تحقيق عبيدة مشهور، ط٢، دار الأندلس، ١٤١٧هـ.